الفصل الثاني

أثر الفلسفة في التواصل الثقافي

تمهيد:

يستطيع المتتبع لعالم الأفكار والثقافة، في نهاية القرن العشرين وبداية القرن الواحد والعشرين أن يتبين مسارين كبيرين في الثقافة والفكر: مسار يمثله القائلون بنهاية الإيديولوجية ونهاية التاريخ وصدام الحضارات والثقافات، ويستندون في ذلك من شعورهم العميق بالخطر والخوف على مستقبل البشرية الذي ينعدم فيه الحوار بين الثقافات والحضارات والمعتقدات.ومسار يتشكل يوميا يمثله القائلون بضرورة الاستفادة من التجربة التاريخية والحضارية للإنسان ومن منجزاته العلمية والفنية والفكرية، في أي زمان ومكان كان الإنسان. وهم بذلك يستندون إلى مبدأ "حوار الحضارات والثقافات" باعتباره واحدا من المقاربات الفكرية التي تحاول تجاوز اطروحات الاتجاه الأول الذي يعتقد في حتمية مواجهة الإنسان للإنسان وفي الصدام والهيمنة والحرب.

وانطلاقا من هذه المقاربات، يمكننا أن نتساءل عن دور الفلسفة أية فلسفة كانت، وأيا كان حاملها باعتبارها إبداعا عقليا في إرساء دعائم الحوار الثقافي، وتنميته، على اعتبار أن الفلسفة يجب أن تمارس على نحو يجعل نتائجها ذات اتصال

وثيق بحياة البشر ومصالحهم، بتطلعاتهم وآمالهم[1]: هل الدعوة إلى الحوار هي خلق فعل جديد؟ أم هي تعبير عن فعل ممارس؟ وهل انقطع الحوار الإنساني، حتى نـــدعو إليه؟ومن ثم فما الجديد فيما ندعو إليه؟ و هل الحوار الثقافي هو حـــوار يســـعى إلى تجاوز المواجهة والصدام والهيمنة؟ أم أن الحوار ما هو إلا صورة من صور الســـيطرة والاحتواء؟ وإذا كان عكس ذلك، فهل هو يتم في إطار إقامة علاقـــات متكافئـــة ومتلائمة تسمح بتعرف كل واحد على الآخر وقبوله واحترامـــه؟ وآخـــر هـــذه التساؤلات، هو القول: ألا يخلو الحوار والتواصل، في ذاتهما، من رهانات وتوظيفات سياسية وإيديولوجية؟

أولا: الإنسان وصناعة ثقافة الحوار والتواصل

لا شك أن ما تعيشه المجتمعات البشرية من علاقات ليس هو وليد الطبيعـــة، وإنما هو وليد الثقافة التي يصنعها الإنسان لنفسه، ومن ثم كان على هذا الإنســـان أن يوجه ثقافته للحوار و"التواصل"، هذا "التواصل" الذي يكون في جميع أشكاله، حوارا، وجدلا، وتبليغا وخصاما، إنما هو شرط من شروط استقامة التفكير وماهيته، والاجتماع البشري بدءا بـــ " الأنا" و" الأنت" حتى " القرية الكونية" هو الموضـــع الطبيعي لكل تواصل ممكن وهو شرط إمكانه والداعي له في وقت واحد[2]، ومن ثم أصبح لهذا الحوار والتواصل في الفلسفة، أهميـــة خاصـــة ـــ ولا ســـيما في عالمنـــا

---

(١) عادل ضاهر، الفلسفة والسياسة، الساقي، بريطانيا، ١٩٩٠م، ص١٢٩.

(٢) حمادي بن جاء الله، في مبادىء الحوار وضوابطه، الخطاب الأنطولوجي العربي "كتاب الهند" للبيروني أنموذجا تطبيقيا، في الحوار الثقافي الأوروبي متطلباته وآفاقه، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، ٢٠٠٢، ص٣٨٩.

المعاصر ــ سواء من حيث محاولتنا تجاوز ما هو كائن إلى ما يجب أن يكون، أو لأننا أصبحنا نعيش عالم " التواصل المعمم la communication généralisée"، الذي لا يمثل فيه الحوار الثقافي ــ الحضاري مجرد مبادرة، نأخذ أو لا نأخذ بها، وإنما غدا ضرورة تفرض ذاتها على الإنسانية، باعتبار الحوار، هو في ذاته وطبيعته، فعل "حضاري" يؤدي إلى العيش المشترك أو الاجتماع السياسي الذي يعبر عن جماعة بشرية متآلفة متآنسة، كما يؤدي إلى السلام في إطار من التعاون الشامل، تحترم فيه الأمم بعضها بعضا على قواعد ومبادىء محددة متفق عليها، وهو الأمر الذي قد يسمح بتجاوز حالة الصدام والصراع والعنف والإرهاب والإقصاء التي تعبر عن فشل فكري وفلسفي، ومن ثم فإن الدعوة إلى الحوار إنما تعني العودة إلى الإنسان فردا وجماعة، من جهة ما هو قيمة وواقع في آن معا[1]، يشكل الخطابات الفلسفية وتشكلها.

وهكذا يبدو أنه لتحقيق أغراض الحوار، المشار إليها، ينبغي أن تشكل الفلسفة ثقافة خاصة تنبع من ماهية الحوار وفلسفته، التي لا نسعى في هذا المجال إلى نسخها وتكرارها ونشرها، وإنما يمكن أن نستخدمها في موضوعنا من مداخل مختلفة ومقاربات متنوعة، ذلك أنه إذا كان الحوار والتواصل قد أصبحا من المواضيع الأساسية في العلاقات المعاصرة بين الشعوب والحضارات، فإن تاريخ الفلسفة يؤكد لنا، أنه في كل المستويات، وفي ظل كل الحضارات، أن الفلسفة سعت إلى الحوار والتواصل، بفعل وطبيعة العلاقات الإنسانية التي تحدد ماهيتها ومصيرها، هذه الطبيعة القائمة على الحوار وتبادل القيم والمنافع التي جسدتها الشعوب والأمم في

---

(١) المرجع السابق، ص٣٨٨.

مسيرتها التاريخية، على اعتبار أن تلك القيم والمنافع هي كونية وعالمية لا تخضع للظرفية والتاريخية، وبهذا المنهج والرؤية يمكن تحقيق ما نتطلع إليه من الفلسفة المبنية على الحوار والتواصل، الذي لا يمكن أن يكون تحديدا إلا بين طرفين أو أكثر، من أجل الوصول إلى أرضية مشتركة من التفاهم والإقناع والاقتناع والتعايش الذي يتجسد من خلاله التعاون والتعاضد والتلقي والانفتاح، والتأثير والتأثر، أي أن يستفيد كل طرف مما ينتجه الآخر ويفصح عنه دون أن يستغله أو يذله ويستعبده.

إن عصرنا الذي يعرف تطورات مختلفة وسريعة في كل الميادين: السياسية والاجتماعية والعلمية والتكنولوجية، قد طرح على الشعوب مشاكل لا حصر لها أفضت أحيانا إلى أزمات خانقة لا يمكن في اعتقادنا، أن يحلها شعب بمفرده، وإنما يمكن حلها وتجاوزها بطريق الحوار والتواصل استنادا إلى التطورات الحاصلة في مجال العلوم والمعارف، والتشريعات، والإعلام والاتصالات، والأنظمة المعلوماتية، التي هي في أساسها تحقق منافع مادية ومعنوية للإنسانية، على اعتبار أن الحوار في ذاته ـ إلى جانب ما ذكرناه ـ يعني تبادل تلك المنافع، بالإضافة إلى الاختراعات والمكتشفات، وكل المستجدات في عالم المعرفة الإنسانية، إذ لا يمكن التأسيس لهذا الحوار الجديد ـ في رأينا ـ إلا عن طريق ما يسميه محمد أركون "العقل المنبثق" أو الاستطلاعي، وهو عقل جديد يتجاوز كل ما سبق، يوسع ويعمق في الواقع تلك المعرفة التحريرية التي قادها عقل التنوير في أوربا الغربية منذ القرن الثامن عشر[1].

---

(١) راجع: محمد أركون، الفكر الأصولي واستحالة التأصيل، نحو تاريخ آخر للفكر الإسلامي، ترجمة: هاشم صالح، دار الساقي، بيروت، لبنان، ط١ ١٩٩٩م، ص٢٤٠.

إضافة إلى ذلك، فإن الثقافة باعتبارها نشاطا وفعلا إنسانيا أصيلا، تدرك قبل غيرها من النشاطات، الحاجة الإنسانية إلى الحوار والتواصل الذي أصبح ـــ في عالم اليوم ـــ ضرورة اجتماعية وسياسية وتربوية وثقافية. وفي هذا السياق فـان العـالم الذي نعيش فيه الآن، يعاني، بشكل عام، من مظـاهر الصـراعات والمواجهـات المختلفة، التي تستدعي بالضرورة نشر ثقافة الحوار والتواصل والتعايش والتسامح والتآنس في سياق التساكن أو الترابط، لأنه بدون هذا الترابط الثقافي ـــ الحضاري، بين الشعوب والأمم، لا يمكن للتعاون وتبادل المصالح والمنافع، أن يقوم أو ينـهض، ولا يمكن لتلك الشعوب والأمم أن تنبذ الصراعات والحروب وما يترتب عنـهما. خاصة وأنه بات من البديهي أن مواجهة الصراعات والصـدامات، مهمـا كـان شكلهما ودافعهما ـــ فكريا، أم دينيا، أم سياسيا ـــ أصبحت ضرورة تفرضها طبيعة فلسفة الحوار، سيما أن تلك الصراعات ليست قائمة بين أفكار ومبادىء مجـردة، وإنما هي صراعات قائمة بين الأفراد والجماعات والشعوب والأمم، تغذيها مصالح معينة، وهو أمر خطير يؤدي في نهاية المطاف إلى شن الحروب التي سوف يخسر فيها كل واحد وجوده نفسه.

إن التباين والتنوع والاختلاف بين الشعوب في هذا السياق الذي تتولد عنـه الخصوصيات الفردية، ليس عملية للصراع والتنافس بين الخصوصـيات الفرديـة والنمطية، وإنما هو بطبيعته أرض خصبة تؤدي إلى التكامل والتعاون، حيث يقول في هذا الشأن، علي حرب، أن: ((الاجتماع بين النظراء أو الشركاء لا يتأسس علـى التطابق بين المواقف أو بين وجهات النظر، إذ التطابق هو المستحيل عينـه، مـادام الأصل هو الفرق والاختلاف، إلا على سبيل الخضوع الذي يجعل الواحـد علـى

شاكلة الآخر أو آلة له. أما الوحدة الغنية فهي التقاء النظراء المختلفين، لا لكي يتطابق الواحد مع الآخرين ويمسي نسخة عنهم، بل لكي يشتغلوا على اختلافاتهم وذلك بخلق مناخ للحوار أو وسط للفهم أو مساحة للتواصل أو مجال للتبادل أو هامش للحركة أو لغة مشتركة))[1]. كما أنه لولا وجود الاختلاف والتباين لما كان ثمة حاجة ماسة إلى الاتحاد والاقتراب من الآخر الذي نختلف عنه ويختلف عنا، ومن ذلك أيضا كان فقهاء الإسلام كما يقول، حسن حنفي، يرون أن: ((الحق النظري متعدد، وهو اختلاف طرق الاستدلال طبقا لاختلاف المجتهدين، والحق العملي واحد وهو الصالح العام الذي يهدف الاجتهاد إلى تحقيقه))[2].

على هذا الأساس، يخيل إلينا، أن الحوار الذي نحن بصدد مناقشته، يتطلب ــ من بين ما يتطلب ــ استحضار الآخر، وإشاعة معاني التسامح، وحق الاختلاف، واحترام المغايرة والتباين، ((في الوجه واليد واللسان)) ــ على الأقل ــ كما يشير المتنبي. وذلك بتجاوز التناقضات المبنية على الاستيعاب والإستلحاق، ومن ثم يمكن أن يسهم الحوار الثقافي ــ الحضاري المتكافئ بين الشعوب، في رسم خطة جديدة، وفي إطار"عالمي جديد".

ومن هذه الرؤية، فإن كل حوار يستبعد بالضرورة تسلط أمة على أمة، أو سيادة ثقافة على أخرى، فقد مضت أزمنة التسلط والتسيد منذ أن تعلمت الشعوب

---

(١) علي حرب، الأختام الأصولية والشعائر التقدمية، مصائر المشروع الثقافي العربي، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، الدار البيضاء المغرب، ٢٠٠١، ص١٤٨.

(٢). حسن حنفي، هموم الفكر والوطن، دار المعرفة الجامعية، مصر، ١٩٩٧م، ج١، ص٢٢٩.

كيف تتحرر من الهيمنات الخارجية، وعرفت كيف تدافع عن حقوقها ووجودها المتكافئ مع الآخرين، وهو ما تؤكده معاني الحرية والعدالة والمساواة. على أنه من بين أهداف الحوار بين الشعوب، يندرج احترام الاختلاف ـــ كما سبقت الإشارة ـــ بوصفه سبيلا للتقارب والاتفاق. بالإضافة إلى أن فلسفة الحوار، تؤكد على أن السلام لن يقوم بين جماعة وأخرى، إذا ظلت حضارة من الحضارات، أو ثقافة من الثقافات، تمارس قهرا سياسيا أو فكريا أو أخلاقيا على غيرها.

إن تاريخ البشرية يبين لنا، أن الحضارات والثقافات التي ادعت الاستعلاء، والأحادية والقطبية، والانغلاق، قد زالت واندثرت، وتاريخ الحضارة اليونانية، وحضارات الشرق، أكبر شاهد على ذلك، ولذلك فإن من أهداف تطوير الحوار الثقافي هو تجاوز الأحادية والقطبية، والانغلاق، وخلق عالم متعدد الأقطاب، يستجيب للقضايا الإنسانية المطروحة، التي من أهمها: الحرية، والتقدم بأشكالهما المختلفة، والسلم والأمن والاستقرار. دون الوقوع في خلق قطب آخر، يستدرجنا إلى صراع شبيه، بما حصل في"الحرب الباردة" التي عانت منها الإنسانية كثيرا.

ثانيًا: تاريخ الحوار الثقافي والحضاري

إن الدعوة إلى الحوار ليست جديدة، فقد كانت حاضرة في تاريخ فلسفة الشعوب وتجربتها، فبقدر ما عرفت البشرية أصنافا مختلفة من التمييز والإقصاء، والأحادية، والعنف والتعصب، عرفت أيضا أنواعا مختلفة وإيجابية من التواصل والتحاور والتعاون والاستفادة المشتركة.ولعلنا لا نبالغ إن قلنا أن الوجه الحقيقي للتجربة الإنسانية يتمثل في حوار الثقافات والحضارات، لأننا ـــ وبنظرة موجزة وسريعة ـــ ندرك أن الحضارات والثقافات تتفاعل دائما وتساهم الواحدة في نمو

الأخرى، وتكمّل الثانية الأولى في سلسلة من الحلقات المترابطة التي يصعب فكها في كل عمل تاريخي وحضاري رصين.

وبناء على ما سبق فإن "حوار الثقافات والحضارات" باعتباره فعلا إنسانيا، فهو: ((من قبيل "تحصيل الحاصل" كما يقول المناطقة، أو "الوقائع الجارية"، كما يقول الاجتماعيون والأنثروبولوجيون وفي مقدمتهم ليفي ستروس الذي أجاد بيان مترلة "التبادل" في تأنيس الإنسان وظهور القيم))[1].فالحوار بهذا المعنى مطلب من مطالب التفكير، ومبدأ من مبادىء الأخلاق، وهما فعلان يرتبطان بالإنسان وممارساته.

كما أنه يجب أن نشير إلى أن ثقافة الحوار لم تكن دعوة فلسفية فحسب، بل إننا نجدها أيضا مبثوثة في جوهر العقائد السماوية[2]، التي دعت إلى ضرورة الحوار والنقاش والتواصل، ونحن اليوم وإن كنا نعيش في عصر تقاربت فيه الأديان والعقائد على الصعيد الجغرافي والفكري، فإن ذلك يجلنا نتفاءل بالمستقبل[3] ورهاناته المشرقة، كما أننا نجد أن الدعوة إلى الحوار، موثقة في سيرة المفكرين والعلماء والباحثين، ومع ذلك، فهل نحن اليوم، بحاجة إلى التذكير بدور علوم الأوائل، وعلوم الإغريق والصين وفارس في حضارات الشرق والغرب؟، وهل نحن أيضا في حاجة، إلى

---

(١). حمادي بن جاء الله، في مبادىء الحوار وضوابطه، ص٣٩١.

(٢). سنبين في الفصل الثاني من هذا العمل كيف أبرز المفكرون الجزائريون الإسلام وفضائله في ترقية الحوار الحضاري بين الشعوب والأمم ودعواته إلى التسامح والتعايش السلمي، من خلال الرجوع إلى نصوصه.

(٣). المطران كيرلس سليم بسترس، أفكار وآراء في الحوار المسيحي الإسلامي والعيش المشترك، المكتبة البولسية، جونية، لبنان، ١٩٩٩م، ص ٢٣٠.

التأكيد على دور العلم العربي والفكر الإسلامي في النهضة الأوربية للتدليل على أهمية الحوار الثقافي والحضاري؟.

واستنادا إلى ما سبق، ألم تكن الرحلات التي قام بها المسلمون الأوائل وكتبوا من خلالها ما وقفوا عليه من الحضارات الأخرى، حوارا حضاريا وثقافيا؟ ولنا في هذا أمثلة كثيرة، منها ما كتبه، المسعودي في "المروج" عن أهل "الزمان"، و "البيروني، عن "الهند"، و "ابن فضلان، عن "البلغار"، والإدريسي في "نزهة المشتاق واختراق الآفاق" الذي كتبه في صقلية، وابن بطوطة في رحلاته إلى آسيا والشرق الأقصى، وخير الدين التونسي "عن الممالك الأوروبية"، و" الطهطاوي، عن " فرنسا "، والقائمة طويلة، ونفس العملية هي التي قام بها المستشرقون تجاه الثقافة والحضارة العربية الإسلامية.

وانطلاقا من هذه الوقائع كان السفر والرحلة والهجرة كلها عوامل لبناء الفكر، وصناعة الفلسفة وانتقالها من مكان لآخر، وفي هذا الشأن يقول، علي حرب: ((السفر العقلي هو مغامرة الفكر الخلاقة التي هي سيرورة ذات صعد وخطوط متراكبة ومتداخلة (...) في هذه الحركة الكثيفة والمزدوجة، ليس الفكر عملية تصور العالم على حقيقته، بل هو القدرة على خلق العالم وتحويله عبر العدة المفهومية والفاعلية التخييلية التي هي شبكات تحويلية بقدر ما هي أدوات تركيبية))[1].

(١) علي حرب، الأختام والأصولية والشعائر التقدمية، مصائر المشروع الثقافي العربي، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، الدار البيضاء المغرب، ٢٠٠١، ص١٦٣.

وعليه ألم تنطلق النهضة العربية الإسلامية الحديثة من مبدأ احتكاكها بالثقافات الأخرى؟ ألم يؤكد بعض بناتها على أنه لا يمكن نهوضنا إلا بالاعتماد على ثقافة الآخر، وإجلاء مقاصده؟ منطلقين من مبدأين: أولهما أن الثقافة الأخرى، هي نتاج للثقافات السابقة عليها، ولاسيما العربية الإسلامية، وهذا بشهادة الغربيين أنفسهم، فهذا الأستاذ رانيلا صاحب كتاب: "الماضي المشترك بين العرب والغرب "، يقول: ((فإننا قد اعترفنا بالأرض المشتركة بيننا وبين العرب. فثقافة العصور الوسطى كانت في الحقيقة إغريقية ــ لا تينية ــ عربية))[1]، ومن ثم فإن العودة إلى هذه الثقافة وحضارتها هو في نظر كثير من المفكرين المسلمين هو عودة إلى ذواتنا. والمبدأ الثاني، هو أن الثقافة الإنسانية هي ثقافة عالمية الوجود، ومن ثم فهي ليست حكرا على أمة دون الأخرى.

ولكننا نلاحظ أن مسألة الحوار لم تكن في كل الأزمان والأحوال بنفس القدر، وإنما قد تزيد وتتقدم في التفاعل والتكامل، وقد تتناقص وتتقلص بحسب الظروف التي تطبع حياة الشعوب والأمم في كلِ حقبة تاريخية. ومع ذلك فإننا نرى أن الفلسفة باعتبارها حوارا قد ساهمت بشكل أو بآخر في فض النزاعات الإنسانية، وعلى ذلك يجب أن تتصدى الفلسفة لكل المشكلات التي تطرأ وتنشأ على صعيد النظر والممارسة بخصوص التغيير الاجتماعي، فدور الفلسفة: ((ينبغي أن يكون

---

(١) أ. ل. رانيلا، الماضي المشترك بين العرب والغرب، أصول الآداب الشعبية الغربية، ترجمة، نبيلة إبراهيم، مراجعة، فاطمة موسى، عالم المعرفة، يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٩٩٩م، ص١١.

تحريك الوعي ورفعه إلى مستوى الرؤيا النظرية المتماشية مع مستويات التغيير الاجتماعي المرجو))[1].

ثالثًا: مستقبل البشرية وثقافة الحوار

نعتقد أن التطلع إلى مستقبل بشري مرهون بالحوار الذي يقوم على تأسيس تصورات جديدة، ننتقل فيها من التنظير والتأسيس إلى الفعل والتطبيق، تحترم فيها الشعوب بعضها بعضا، وتتخلى عن رواسب التمييز العرقي والتعصب المذهبي، مما يعني احترام الهويات الثقافية التي تحتها كل شعب من الشعوب بالقدر نفسه، ومراعاة خصوصية كل تجربة تاريخية دون محاباة لتجربة على حساب غيرها، والتخلي عن مركزية النظرة الأحادية التوجه، والإيمان بالحوار بين الثقافات من دون تمييز، وينبغي أن تمزج الثقافة الخاصة لكل شعب، في الثقافة العالمية بقدر ما تقدمه الخاصة للعالمية، والابتعاد عن ما يسمى بالثقافة الأمة، والإيمان بالتنوع الثقافي الذي يصبح بمقتضاه التنوع الثقافي في علاقة مع أكبر عدد ممكن من الأبعاد التي تميز مجتمعاتنا المعاصرة[2].

من هذا المنطلق، فإن فلسفة العولمة المعاصرة إذا أرادت البقاء والاستمرار، فإنها مطالبة بأن تقيم علاقات متكافئة بين مختلف الأمم والثقافات، وهي الأمم التي تحولت بفضلها، وبفضل التطور العلمي والتقني، إلى أمم تعيش على قرية كونية

---

(١) عادل ضاهر، الفلسفة والسياسة، ص١٢٩.

(٢) تراوغوت شوفتهالر، التدرب على العيش معا واحد من تحديات العولمة، في الحوار الثقافي الأوروبي متطلباته وآفاقه، ص٣٨١.

واحدة، تتسع لجميع الخصوصيات الثقافية، والطاقات البشرية، ونتيجة لذلك فإن التطور الجديد في تاريخ البشرية، يتطلب فلسفة جديدة وتفكير جديد يقوم على معنى الاعتماد المتبادل بين الأمم والشعوب من حيث أن التطور يناقض التبعية، ويضيف دلالة جديدة إلى مفهوم الاستقلال الذي يتأكد بالتعاون المتبادل بين الحضارات والثقافات، من أجل مواجهة المشكلات العالمية الكبرى، التي لا تستطيع ثقافة معينة على مواجهتها وحلها منفردة، كمشكلات البيئة والأمن، والصحة.

وهكذا فإن آليات الحوار الفلسفي مطالبة بتأصيل أخلاق جديدة، وشروط مدنية أكثر جدية، تهدف إلى تأصيل المعاني الإيجابية للتنوع الثقافي القائم على التفاعل لا على الصراع، وعلى الحوار بين أطراف متكافئة وليس بين أطراف متراتبة في علاقات هيمنة وتسلط وتبعية يكون فيها أحد الطرفين هو المتلقي السلبي فقط، وإنما يجب أن يكون الحوار هو إبراز الهوية الفردانية الخاصة بكل طرف من أطراف الحوار.

رابعًا: الفلسفة وتأسيس أخلاقيات جديدة في تطوير الحوار

إن الفلسفة اليوم مطالبة بتطوير الحوار، والبحث على إيجاد أخلاقيات جديدة تؤدي إلى تفعيل الحوار الثقافي، على أساس أنها: ((فتح فكري ونافذة على الوجود أيا كان نظام القول وشكله وطبيعته لذا، فإن الفلسفة وغن كان لها فرادتها واستقلالها تطل على كل الميادين والمجالات، وتنفتح على جميع الأشياء والحقائق))[1]، من هنا فهي مطالبة بتشكيل أخلاقيات تبعد الطروحات التناحرية، أو

---

(١) علي حرب، أسئلة الحقيقة ورهانان الفكر، دار الطليعة، بيروت، لبنان، ١٩٩٤م، ص٦٧.

التصادمية بين الثقافات والشعوب. ويحمل فيها كل واحد ثقافة التسامح مع الآخر، واعتبار منظومة العلاقات بينهما هي علاقات متكاملة، وأن ما تقوله ثقافة معينة في سياق معين، يخضع دائما للمناقشة والاختلاف، والنقد والتمحيص، والتجاوز، وقد يكون ذلك حتى داخل الثقافة الواحدة، التي لا تعني أنها ليست وحدات مغلقة ومتجانسة، كما كان في تجربتنا الفلسفية التاريخية التي أبرزت ذلك التنوع، كما حدث بالنسبة للحوار الذي تم بين ابن رشد والغزالي، ومن هذا المنطلق نؤكد ضرورة الإقرار بأن الأخلاقيات الجديدة يجب أن تقوم على احترام حقوق الإنسان، المبنية على الإختلاف والتنوع، فقد ورد في الإعلان العالمي لليونسكو، حول التنوع الثقافي لسنة ٢٠٠١، أنه لا يمكن أن تتحدد للفرد واجبات تبعا لأصوله أو لثقافته الموروثة، وذلك سعيا لتحقيق التعايش بين الأشخاص والمجموعات المنتمين لهويات ثقافية متعددة متنوعة وديناميكية[1]. كما أن الأخلاقيات الجديدة تعمل على تنمية الديموقراطية والتعددية، والمجتمع المدني، وحماية الأقليات، والالتزام بحل الصراعات والأزمات سلميا مع ضمان عدالة في التفاوض.

فالفلسفة، مطالبة بأن لا تتخلى عن دورها التاريخي والحيوي، وهو استمرار ثقافة الحوار، والمحافظة على استمرارية العلاقات الإنسانية في إطار حوار ثقافي تتطلب نوعا من الغيرية، وهي الغيرية التي تفتح أبواب المستقبل وتضع حدا للعزلة بين الشعوب. ولذلك فإن واجبنا اليوم، وعلى كل مستوياتنا، أن نتبنى الخطاب الفلسفي الذي نستند فيه إلى الانتصار على ذواتنا من اجل استعادة الفوز بالغير، وهو ما لا يتأتى إلا بالاضطلاع الكامل بالذات والقيام بتنشئة طلابنا ناشئة

---

(١). تراوغوت شوفتهالر، التدرب على العيش معا واحد من تحديات العولمة، ص٣٨٢.

المستقبل، وأفراد مجتمعنا على الغيرية، وحب الآخر والتأقلم معه، فقد أكد "جان بياجييه" أن كل تعلم إنما يحصل بالسعي من أجل التوازن بين التأقلم مع الآخرية واستيعابها، وهو مبدأ عام يربط بين التطور المعرفي ونضج التفكير الأخلاقي[1].

ولذلك فلا مفر من مواجهه الآخر وهي مواجهة تظل في أساسها من طبيعة الأشياء، يجب التغلب عليها دائما، باعتبارها صعوبة من صعوبات المسار التاريخي للإنسان. وهو ما لا يمكن التوصل إليه إلا بفضل مجهود ذاتي، يقوم به الفلاسفة، باعتبارهم أقدر من غيرهم على تعقل ذواتهم وتعقل ما يحيط بهم، لأنه: ((لا حديث عن خطاب فلسفي حقيقي، إلا إذا أفلح الإنسان بتأمل وجوده من جديد بحيث يقوم بتأوله وإعادة القول فيه))[2]، ولا يقول الفيلسوف ذلك إلا انطلاقا من إرادة تقوم على الصدق والحرية والشجاعة. ينطلق فيها الأفراد، من مبدأ روح الإنسانية الذي يجمعهم، من خلال ما يحبه الفرد لذاته ولغيره. وأيضا مما يحبه لثقافته، ولثقافة الآخرين، ومما يحبه لوطنه، وللأوطان الأخرى. فالبشرية ليست لها ثقافة واحدة، ولا وطن واحد، ومن خلال هاته الروح تتحقق المعاني الإنسانية للحوار الثقافي بين الأفراد والشعوب.

خامسًا: الفلسفة وآليات تطوير الحوار الثقافي

إن الفلسفة مطالبة بالعمل من أجل بناء مستقبل مشترك يرتكز على التعاون، والتقارب، ويعمل على تطوير آليات الحوار الثقافي المتعدد الأبعاد (ثقافي، أخلاقي،

---

(١). المرجع السابق، ص٣٨٣.

(٢) علي حرب، أسئلة الحقيقة ورهانان الفكر، ص٦٧.

تربوي، اقتصادي، علمي، تقني ...الخ). ومن ثم يجب تفعيل آليات التبادل والتكامل الثقافي والاقتصادي الذي تتجاوز فيه العلاقات بين الشعوب والأمم النظرة الإيديولوجية الضيقة التي تنتهي بانتهاء ظرفها، بينما صيرورة الحوار الفلسفي، في ظل تاريخه الطويل، كانت – في رأينا– مؤسسة على مبادىء مستمرة، ولم تكن مؤسسة على ظروف ومصالح آنية نابعة من تقلبات الزمان، فالفعل الفلسفي الحقيقي هو الذي يستوعب ماضي الفلسفة ذاتها، سواء كان كله أو بعضه، ويتجاوزه في عملية تشكيا نفسه التي هي جزء من عملية تشكيل الحياة المجتمعية المشتركة والعامة(١).

ويمكن القول، في هذا السياق أن تطوير آليات الحوار وترسيخها، ثقافة تفرضها رهانات المستقبل بين الشعوب والأمم، ويمكن أن تتم في مجالات وفضاءات متعددة، منها: التربية والعلوم والفنون، والصحة، والسياحة والأسفار، والمهرجانات الثقافية المتبادلة، الإعلام ووسائله، والبعثات الدراسية، وهي مجالات ترتبط كلها بين الأفراد من جهة، والمؤسسات الاجتماعية من جهة أخرى، لا تمييز فيها بين إنسان وآخر. كما يتم تطوير آليات الحوار بطريق ربط علاقات أكاديمية من خلال المؤسسات التعليمية، والجامعية، على وجه الخصوص، والقيام بتوأمتها، وتفعيل التعاون البيداغوجي، وتبادل البرامج التعليمية، ومن ثم يمكن أن يكون كل واحد من الطرفين موضوعا للآخر، وبه يستطيع كل واحد التعمق في معرفة الآخر، ولا يتحقق ذلك إلا بين المؤسسات الثقافية والجامعية.

---

(١) ناصيف نصار، الفلسفة في معركة الإيديولوجية، دار الطليعة، بيروت، لبنان، ط٢، ١٩٨٦م، ص١٤١.

كما أنه يجب تسهيل تنقل الأفراد والباحثين لتحقيق تلك الرهانات، ويمكن توسيع تلك الميادين إلى ميادين أخرى تكون قادرة على تنمية ثقافة الحوار بين الشعوب والأمم. إنه في هذا الإطار وحده تتجلى معاني الحوار الحقيقي، بين الشعوب، وتترسخ أهدافه المعبرة عن الكرامة الإنسانية بصورة أعمق وأكمل.

إن دعم تطوير آليات الحوار، والارتقاء بها، إلى مجالات أفسح وأوسع، يجرنا إلى طرح ضرورة أخرى، تتمثل في تدعيم تعلم اللغات بين الشعوب، لأن اللغة من أهم آليات الحوار وأساليبه، إضافة إلى أن آليات الحوار، يمكن أن تتدعم أكثر، في مجال تبادل المنشورات والمطبوعات بين الشعوب ــ وخصوصا الكتب والمجلات ــ وضرورة ترجمتها إلى اللغات لكي تستطيع الإطلاع عليها فئات مختلفة، على أن تتكثف المؤلفات، والمعاجم القاموسية، للغات، وذلك لتسهيل عملية القراءة، وتبادل المعرفة بينهما.

على أن المستقبل بين الشعوب والأمم مرتبط بالتبادل الاقتصادي، وهو آلية هامة من آليات الحوار، لأن العنصر الاقتصادي يمثل دورا كبيرا في التقارب بين الشعوب والأمم، في كل الأزمنة والأمكنة.إن ثقافة الحوار اليوم مطالبة بتطوير تبادل الوسائل التكنولوجية التي تساهم في تطوير التحولات الاقتصادية التي يشهدها العالم، وإزالة الفوارق بين الفقراء والأغنياء، لتحقيق شعور مشترك يحترم فيه كل طرف الآخر.

سادسًا: دور الفلسفة في تفعيل الحوار الثقافي

لعل المجال الحيوي للحوار الثقافي، هو من دون شك يتمثل في الدور الـذي تؤديه الفلسفة، باعتبارها الميدان العلمي والمعـرفي المتفـتح علـى عـالم الأفكـار والمبتكرات، من خلال تعبيرها عن روح العقل الفعال بما هو عقل كوني خالد عـبر الجنس البشري، كما أشار إلى ذلك فيلسوفنا ابن رشد منذ قرون مضت، ومن هنا فإن الفلسفة تدرك قبل غيرها من ميادين المعرفة الأخرى، أهمية التواصل والحوار مع جميع الثقافات وخاصة بعد التطورات العلمية المذهلة التي تعرفها البشـرية والـتي تتطلب مسايرة ومواكبة وتواصل دائم ومستمر، دون كلل أو ملل، لأنه مـن دون الحوار والتواصل بين الثقافات لا يمكن للتقدم العلمي والمعرفي أن يتقدم ويتطور، أو بعبارة أخرى، واستنادا إلى المعطيات التي ـ سبق ذكرها ـ فإن كل دعوة للحوار يجب أن تقوم على مبدأين اثنين: مبدأ أخلاقي يقضي بتساوي البشر "بالوهـب" لا "بالكسب"، ومبدأ إبستيمولوجي يقضي بمقارنة الآراء ومحاورتها لإمكـان المعرفـة الموضوعية، سواء كان موضوعها "الأنا" أو "الأنت"[1].

وعلى هذا فإننا نعتقد الفلسفة، هي الميدان الذي يكون العقول القادرة علـى ترقية آليات الحوار الثقافي بين الشعوب والأمم والحضارات، والقضاء على فجـوة الجهل بالآخر، هذا الجهل الذي يعد آفة من آفات التعصب والحقد وعدم التسامح، وأن القيام بهذه المهمة الفلسفية، لا يكون إلا بالاعتماد على البحوث الأكاديميـة التي تحدد آليات الحوار ووسائله وتواصله. فالفلسفة في رأينا لا تقربنا مـن الآخـر فحسب، بل تقرب الآخر منا. وهذا العمل الذي تقوم به، هو الذي يجعلها رائـدة

---

(١) حمادي بن جاء الله، في مبادىء الحوار وضوابطه، ص٣٩٥.

في التقريب بين الأمم والشعوب. وبذلك ينبغي أن يتوجه عملها الحواري، إلى جميع مجالات الحياة في إطار من الشمولية التي تبتعد فيها عن الانتقائية والخصوصية.

ومن هذا المنظور، يمكن لكل عقل من العقول أن يساهم في ثقافة الحوار. وتاريخ البشرية يوحي لنا بأن الفلسفة مازالت عندها الوسائل التي تؤهلها لتحقيق ثقافة الحوار، وتحقيق معنى التثاقف الإنساني الذي نحس في أمس الحاجة إليه.

وبهذه المناسبة، وفي ظل هذه الحركية الثقافية التي تميز الفلسفة، نرى ضرورة استحداث وحدة بحث في كل جامعة، أو "كراسي"، تهتم بالحوار الثقافي والديني للمقاربة بين الثقافات والأديان، تنجز بحوثا مشتركة وتتنبأ بالمستقبل ورهاناته، وتعمل كل جماعة في تدعيم التواصل والحوار وتطوير آلياته بين شتى الثقافات والحضارات، لأنه لا مانع من أن يفهم الواحد منا ثقافة الآخر مهما كانت ثقافته وحضارته، فمن حق العربي على سبيل المثال أن يطلّع على ثقافة الهندي والعكس صحيح، فكل عقل في فعله الحواري كما يقول "كانط"، يجب أن تكون له ضوابط، منها: أن يفكر المرء بنفسه، وأن يفكر واضعا نفسه مكان أي آخر كان، وثالثها، أن يفكر في وفاق مع ذاته، ومن ثمة فلهذه الضوابط ثلاثة مبادىء: أولها مبدأ التفكير المتحرر من الأحكام المسبقة، والثاني مبدأ الفكر رحب الأفق، والثالث مبدأ الفكر المتناسق[1].

وإذا التزمت كل وحدة في بحثها بهذه المبادىء فإنها ستكون منبرا لتفتح العقل وتنمية الذكاء وتحقيق التفاعل الإيجابي، قادرة على التكيف مع كل الظروف

---

(١) المرجع السابق، ص٣٩٨.

المستجدة، وتعمل على نشر قيم السلم والتعايش بين الأفراد والجماعات، ومساهمة في حياة كل الثقافات وتطويرها وازدهارها.

وفي اعتقادنا، فإن نجاح هذا الحوار الفلسفي، لا يمكن أن يتجسد إلا من خلال تطوير وتثمين الحوار في العقل، ونبذ كل الخلافات ــ وليست الاختلافات ــ بين العقول التي هي في أساسها خلافات اصطناعية، وليست طبيعية، لأنها في الغالب خلافات بين إيديولوجيات لا بين فلسفات أنتجتها تلك العقول، ومن ثم الإيمان بتعدد وجهات النظر كهدف من أهداف الفلسفة التي يجب أن تطبع العقل الإنساني فإذا تم ذلك، تجسد الحوار الثقافي مهما كانت طبيعته، لأن الجانب الثقافي ــ على أي مستوى إنساني كان ــ هو الذي يحدد هوية فعله وفاعله، وقيمه الحضارية، وهو في الوقت نفسه، يعبر عن روح الفلسفة، وعن منظومة المرجعيات التي تشكل تلك الفلسفة نفسها، ثم إعادة تشكيلها من جديد.